



( ذكر الصديق للبركة )

## الأحزان المفرحة (١)

في الذكرى السنوية الأولى  
لنياحة رئيس تحرير المجلة  
الأب يوحنا المقاري

[عندما نظرت الوالدة الحَمَل والراعي مُخْلِص العالم على الصليب  
معلِّقًا قالت وهي باكِيَّة: أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص، وأما  
أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك، يا ابني وإلهي].

العجيب في المسيحية أن ما يبدو فيها متناقضًا، هو عينه سر قوتها وعظمتها وعدم  
انهزامها أمام أي قوة طبيعية...

العالم بطبيعته مليء بالأحزان ولا مفر لإنسان من الأحزان.

ومع ذلك فالمسيحية تُطَوِّب الحزاني (مت ٥ : ٤)، بل تقول أكثر من ذلك، إننا نظهر  
كحزاني ونحن دائمًا فرحون (٢ كو ٦ : ١٠)، بل إنها تخلق لنا من أحزاننا ذاتها مصادر  
للفرح والتهليل...

+ «أَحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقْعُونَ فِي تَجَارِبٍ مُتَّوَعَةٍ» (يع ١ : ٢).

+ «لَأَنَّهُ قَدْ وَهَبَ لَكُمْ لِأَجْلِ الْمَسِيحِ لَا أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطَّ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا لِأَجْلِهِ.»  
(في ١ : ٢٩).

+ «طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَبَّرْتُمْ وَطَرَدْتُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شَرِيَّةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ.  
أَفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ ...» (مت ٥ : ١١).

بل هي تجعل نصيبنا في احتمال الأحزان فخرا لنا وإكليلاً، وهذا ما جعل القديس  
بولس الرسول يسرد قائمة أحزانه وأتاعبه بفخر لأهل كورنثوس مثبِّتًا بها رسوليته ومُعَدِّدًا  
لهم كم من المرات ضُرب ورجم، وسُجِن، وكُسيرت به السفينة، بأخطار لصوص، بأخطار  
من بني جنسه وبأخطار من الأمم (٢ كو ١١ : ٢٦).. ويقول في رسالته إلى رومية:

---

(١) بمناسبة الذكرى الأولى لانتقال الأب يوحنا المقاري (٢٠٢١/٧/٣) رئيس تحرير مجلة مرقس السابق وصاحب  
الفضل في استمرارية صدورها منذ سنة ١٩٦٣ مع المتنبِّح الأب الراهب باسيلوس المقاري ... نقدّم هذه المقالة التي سبق  
نشرها في مجلة مدارس الأحد في مايو ١٩٥٧، وكان وقتها ما زال علمانيًا باسم الدكتور رؤوف جرجس.  
+ سبق وأن أصدر الدير نبذة عن حياة الأب يوحنا بعنوان: "أيقونة مضيئة".

«... وَلَيْسَ ذَلِكَ فَقَطْ بَلْ نَفْتَحِرُ أَيضًا فِي الصَّيْقَاتِ عَالِمِينَ أَنَّ الصَّيْقَ يُشِيءُ صَبْرًا وَالصَّبْرُ تَرْكِيَةً وَالتَّرْكِيَةُ رَجَاءٌ وَالرَّجَاءُ لَا يُخْزِي لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ قَدْ اُنْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدْسِيِّ الْمُعْطَى لَنَا...» (٥: ٣ - ٥).

فالمسيحية إذن تقدّم لنا نصرة على الحزن الذي لا مفر منه في هذا العالم. هي لا تغشّنا، والمسيح قال لنا صراحة:

«الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ. الْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لِأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ، وَلَكِنْ مَتَى وَلَدَتْ الطِّفْلَ لَا تَعُودُ تَذْكُرُ الشَّدَّةَ لِسَبَبِ الْفَرَحِ، لِأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي الْعَالَمِ. فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ، عِنْدَكُمْ الْآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيضًا فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ... فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضَيْقٌ، وَلَكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ عَلَبْتُ الْعَالَمَ» (يو ١٦: ٢٠ - ٢٢، ٣٣).

وسيدنا نفسه سلك طريق الأحزان قبلنا وانتصر عليه، وجعل من آلامه وموته خلاصًا وفرحًا للعالم، بالرغم مما في آلامه وموته من أحزان ألهمت قلب أمه العذراء، ولا زالت تلهب قلوب المتطلّعين إلى صليبه وهو معلق عليه لا صورة له ولا منظر لنشتهيه.

فهذا الصليب الذي عليه تمثّلت أقسى أحزان المخلص، هو ذاته ينبوع شفاء الأمم، وسلم الصعود إلى السماء، وبداية أفراح القيامة، وعلامة ابن الله المتجسّد لأجل خلاص البشرية.

وهكذا صارت رؤية المسيح والتمتع بملكوته وحبه وسلامه، لا تخلو من رؤية صليبه بل وحمل صليبه أيضًا.. لأنه من غير الممكن أن نفكر في المسيح دون أن نصل في النهاية إلى فكرة الصليب بكل جدية وإلى ضرورة احتمال الآلام مثله من أجله.

ولعل هذا هو المعنى الذي قصده السيد المسيح حينما علّمنا قائلاً: «إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِزْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي» (مت ١٦: ٢٤).

يُعوزنا الآن أن نفهم كيف تصير أحزاننا مصدرًا للفرح!!

فالحزن بمعناه المبسط هو الشعور الذي يجتاحنا حينما لا تسير الأمور حسب هوانا. فقد نحزن من آلام جسدية تُسببها الأمراض، أو من آلام نفسية مصدرها الفشل أو شدة الحاجة أو من مؤامرات ناس أشرار أو فقد عزيز... وقد نحزن بسبب الخطية العاملة في أعضائنا والتي تدفعنا لنعمل شرًا لا نريده... فأول كل شيء يُعوزك أن تتخلّى عن هواك لكي تعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبون الله.. وأن المر الذي يختاره لك الله

خير من الحلو الذي تختاره لنفسك.

أما إن كان حزنك بسبب آلام جسدية فاسمع قول معلمنا بولس الرسول من جهة آلامه الجسدية: «وَلَيْتَلاً أَرْتَفَعَ بِقَرْطِ الإِغْلَانَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الجَسَدِ، مَلَائِكَ الشَّيْطَانِ، لِيَلْطِمَنِي لَيْتَلاً أَرْتَفَعَ. مِنْ جِهَةِ هَذَا تَصَرَّعْتُ إِلَى الرَّبِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنْ يُقَارِقَنِي. فَقَالَ لِي: "تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لِأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ". فَبِكُلِّ سُرُورٍ أَفْتَخِرُ بِالْحَرِيِّ فِي ضَعْفَاتِي، لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ الْمَسِيحِ» (٢ كو ١٢: ٧-٩).

ألست تعلم يا أخي أن هذا الجسد الذي تتألم بسببه هو الذي عدّبك كثيرًا بعناده وعدم مطاوعته إرادتك الصالحة؟ فليكن لك عزاءٌ في هذه الآلام بأنها دليل رضا الله عنك وسعيه لتأديبك وتقويم نقائصك.

وليت قلبك يتعزى كثيرًا حينما تعلم أن هذا الجسد الترابي الذي يُؤلمك ويُحزنك ليس هو مسكنك الأبدي، بل هو خيمة وقتية وضعيفة، سوف يأتي الوقت عن قريب لتخلعها مع ضعفاتها ونقائصها ... لتسكن بيتًا يدوم إلى الأبد، لا يعتريه فساد ولا يصيبه ألم أو ضعف.

إن الله وضع لنا الآلام في هذه الحياة لكي لا نتعلّق بها فننسى الوطن الأصلي الذي خرجنا منه وسنعود إليه. وهو جعل هذه الآلام والأحزان كثيرةً حتى أننا في كل ضيقاتها نلجأ إليه فيعيننا فنتعزى، وهكذا تصير لنا استجابة الله لنا في وقت الحزن مصدرًا للفرح والتعزية.

أما إن كانت أحزانك بسبب آلام نفسية فليكن حزنك مصحوبًا بالرجاء في محبة الله وقدرته ...

هل تظن يا أخي الحبيب أن الله الذي فداك بدمه يبخل عليك بمعونة تسد حاجتك أو تدفع عنك أذى الناس الأشرار؟!

+ «الَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَدَلَهُ لِأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لَا يَهْبُتَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟»  
(رو ٨: ٣٢).

لماذا لا تصدّق أنه لخيرك سمح الله بهذا الفشل وذاك الحرمان وتلك المؤامرات؟! إن كنت لا تستطيع أن تُصدّق؛ فاعلم أن سبب حزنك غالبًا هو ابتغاؤك الأشياء القريبة دون الالتفات إلى الأهداف البعيدة ... ومَنْ هو الذي يطلب الأشياء القريبة دون الأغراض البعيدة؟ أليس هو الطفل؟! ونحن إن فعلنا ذلك فلا شك أننا أطفال في روحانياتنا،

ومحتاجون أن ننضج لنتعلم كيف نرتجّي الفوائد البعيدة دون الأشياء القريبة.

+ «لَكِنِ اظْلُبُوا أَوَّلًا مَلَكُوتَ اللَّهِ وَبِرَّهٖ، وَهَذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (مت ٦: ٣٣).

فلا نحزن بعد اليوم على أمور فانية باطلة، بل ليتنا لا نحزن إلا على خطايانا التي تقف حائلًا بيننا وبين نوال الملكوت.

أما إن كان حزنك بسبب عزيز فقدته، فلماذا تنسى يا حبيب الله، أنك لست من هذا العالم كما أن عزيزك الذي مات ليس من هذا العالم؟ هل تراه شيئًا معقولًا أن تحزن على عودة غريب إلى وطنه ... أو على إطلاق سجين من سجنه؟! أليس هذا ما نؤمن به؟!

قد تقول لي، إن خسارتنا فيه لا تُعوّض، فقد كان لنا مصدر خير وبركة لنا، وربما كلامك هذا صحيح ... إلا أن محبتك لهذا العزيز توجب عليك أن تتنازل عن منفعتك منه في سبيل تمتعه الأبدي بأفراح القديسين في ملكوت السموات ... وحينئذ سوف تحس بأن حزنك على فراقه قد امتزج بفرحك لمكسبه.

ولقد كتبتُ أحد المسيحيين بعد فقد زميل عزيز يقول: "قد تعلمتُ أن المضاد للفرح ليس الحزن بل الخطية، فالحزن الحقيقي والفرح الحقيقي قد يأتلفان معًا".

أما إن كان حزنك بسبب الخطية المحاربة في أعضائك، فلا تخشى من ذلك، كما قال أحد القديسين، لأنه يُسبب لك صلاحًا كثيرًا إن كنت قد اقتنيت معرفة تجارة الفضائل، فتقتني ربحًا من الخسارة، فإنها أولاً تصير لك مادة للقتال، لأنه حينما لا يوجد خصم لا توجد غلبة. كما أن هذه الحرب تُشعرنا بضعفنا، فتبقينا في اتضاعنا أمام الله، والقلب المنسحق والمتواضع لا يُرذله الله.

حتى وإن هُزمتنا في هذه الحرب، فلا نحزن بإفراط فنبتلع من اليأس، فهذه غاية الشيطان، بل لنقم سريعًا ونقدّم توبة صادقة، وما أعظم الفرح الذي تجلبه دموع التوبة لقلب التائب.

وهكذا إن استطعنا، بنعمة الله، أن نجد في كل أحزاننا مصادر للفرح والتعزية، نكون بذلك قد أكملنا الوصية التي تأمرنا «أَفْرَحُوا كُلَّ حِينٍ» (١ تس ٥: ١٦).

بقي لنا أن نعرف أن أسمى العواطف النبيلة تنبع من الحزن المقدّس، حتى أنه يمكن القول بأن الإنسان يصل إلى أعلى مراتب الإنسانية حينما يعرف كيف يتألم ويحزن ...